شيزاف مشكلة حمل الفتاة والولد (عواد) والشخص المعطي اسمه لعواد وتعيين رفائيل رئيساً للدير؛ كل ذلك يتمّ في سبيل الحبكة والاثارة. والأنكى من ذلك هو انه يتمّ على حساب البدوي العربي الذي يحافظ على شرفه وعرضه حتى الاستماتة!

وهكذا، اصبح عوّاد كبيراً؛ وصار يتعلم في مدرسة يهود؛ وتزوّجت جميلة صالح الختيار؛ وظهر لنا فردج انه جاسوس عند النصارى واليهود (ص ١٣١). وحاول النقيب اسماعيل، الذي يشتغل في المخابرات المصرية، ان يستغل ما يعرفه فردج عن الدير، وما ومن فيه، وخاصة عن رفائيل.

هنا يبلغ التنميط والقولبة ذروتهما. فبعد تحقيق قصير مع فردج، يسمح النقيب اسماعيل له بالعودة من حيث اتى. وعلى طريق العودة، يفكر فردج على النحو التالي: «انهم لا يحبوننا [المقصود المصريين]، انهم يخافون؛ لأننا لسنا اسلاما مثلهم؛ ولأننا نحن بدو ولنا احترام الجبال خاصتنا واحترام مصيدة النمور؛ ولاننا تتدبّرنا الامـور جيداً مع الاسرائيليين» (ص ١٣١). ان الشرخ الذي يفتعله شيزاف في فكر فردج، ما هو الّا الدليل الصارخ على شكل التنميط والقولبة في روايتيه.

وتبدو ثعلبية فردج واضحة، حين يعترف بأن «لرفائيل سذاجته الخاصة به. لقد رأى العالم واتى الى هنا ليسقط في كل مصيدة ينصبها له كل واحد، انا وجميلة وعوّاد واسماعيل» (ص ١٣١). ويغمز الكاتب شيزاف ـ على لسان فردج ثانية ـ الى الانتفاخ والغرور الاسرائيلي والاجواء العسكرية السائدة في البلاد: «لأن الاسرائيليين يعرفون ان ينتصروا في الحروب فقط، وفي السلام هم خسروا وعادوا الى تل ـ ابيب وايلات وعاد المصريون» (ص ١٣٥).

وفي النهاية، كموازاة مع القصة السابقة «نمر في الجبال»، يعتبر فردج نفسه، هو الآخر، صيّاداً: «لأني انا، ايضاً، اصطدت رفائيل مع جميلة، ليعطوني عوّاداً» (ص ١٤٤).

عوديد

الصحراء، بالنسبة الى عوديد، مغامرة ونزهة. فهو يستغرب وضع ما بعد كامب ديفيد: «كل شيء كان بسيطاً جداً في هذه الجبال قبل ان يحضر السلام. بعض رجال ذوي رؤيا. سلام أُعدّ لتسهيل العلاقات. الحرب بالذات اكثر سهولة. يوجد عدو ويوجد صديق. يوجد محبّ ويوجد كاره. والآن، مع هذا السلام، اذهب واعرف من ضد من، ولماذا ؟» (ص ١٥٧). ولأن عوديد اطلع على حقيقة الحياة في الصحراء، فهو يعرف انه «هكذا في الصحراء. ما من شيء ثابت، عدا الصخور والينابيع والجبال» (ص ١٦١). وما التغيير الجاري في الصحراء، بالنسبة الى عوديد، سوى تغيير شكلي؛ فهو يستطيع ان يتنزّه، وان يرى اصدقاءه، على الرغم من ان المخابرات المصرية تنتشر هناك.

عواد

امّـا فردج وعواد، فانهما يكنّان كراهية للنقيب اسماعيل، الذي يطاردهما ويسألهما عن رفائيل، ويحبط مسعى فردج الى تهريب حفيده عواد الى داخل اسرائيل، ليصبح طيّاراً هناك. والنقيب اسماعيل يبحث عن حجر ذي اشـارات. وكـل مطارداته تبوء بالفشل؛ اذ يُرمى الحجر في بحر ايلات. شخصية النقيب اسماعيل تبدو مضحكة، وحتى هزلية؛ امّا الشخصيات العربية البدوية الاخرى، فانها تنمّط وتقولب غاية التقولب؛ ففردج يطمح لأن يكبر حفيده، وان يصير طيّاراً في سلاح الجو الاسرائيلي، لكن النقيب اسماعيل يطاردهما دائماً. ورفائيل يبدو مشغولاً بعالمه الداخلي، وبكل ما حدث قبل ان يأتي الى هنا.

عن أبعاد حضور العربي في الروايتين

يرى مناحيم بيري (غلاف الكتاب) انه يمكن قراءة الروايتين كقسمين مقلوبين. ومع ان التداخل كان بارزاً بين احـداث الروايتين، الّا اننا رأينا انه يجدر قراءة كل رواية على حدة. ففي القسم الاول ـ حسب تقسيم